المال عند الأقدمين وعندنا

تضخم الثروات وتوزيعها

في مختلف العصور والامم

لامين الريحاني

المال يعمر الممالك ويخربها ، يعمرها اذا قرن في استخدامه العلمُ وحب الانسانية ، ويخربها اذا انحصر استخدامه في حب الذات والمصالح الخاصة

المال رأس النعم في الحياة الدنيا ، ورأس المحن كلها . هو رأس النعم اذا توزَّع توزُّعاً عادلاً بموجب شرائع يسنها الانسانيون الصادقون من السياسيين ، وهو رأس المحن اذا تكتَّل وتضخم ، وكانت الشرائع تساعد في تضخمه وتكتُّله

المال في الحال الاولى كالنهر العديد الفروع ، الكثير الترع والاقنية ، عميم الفائدة وهو في الحال الثانية كالسد تتجمع فيه مياه النهر لتستخدم في احياء ارض محدودة دون سواها

كان المال خير وسيلة للانسان الاول في معاملاته المدنية الاولى ، فصار شر وسيلة اذ اتسع نطاق تلك المدنية ، وتعددت المطامع البشرية . بيد انه في تطوره الحديث ، عائد الى وضعه الاول ، فيطلق اذ ذاك في توزعه ، من القيود الاقتصادية التي تسبب التضخم والتكتُّل ، وتقاس قيمته بمنافعه العامة لا الخاصة

المنافع الخاصة ! لقد كان اصحابها يتمتعون ، في المدنيات القديمة وفي مدنيتنا السابقة للحرب العظمى ، بكثير اسباب الفلاح ، وبكل حقوق الاحتكار السياسية والاقتصادية . ما كان والحق يقال منافع تذكر غير المنافع الخاصة . وقد كانت في المدنيات الاولى تستعين حتى بالدين ، فتُنزَّل الآيات من اجلها ، ويتكهن الكهان لتعزيزها

اما عامة الناس ، السواد ، العاملون المستجون والمجاهدون ، فحسبهم التقوى ونعمة الآلهة . حسبهم رضى الكهان والاشراف ، اولئك الذين استغلوا الاديان ، واستغلوا بثمار جد الانسان ، واستمتعوا بخيرات الارض في كل مكان ، فكانوا القليل ، وما كانوا كراماً الاَّ نادراً ، وكان السواد من الناس يدفعون الخراج ، و «يأكلون» الكرباج ، ويصلُّون في الهيكل لرب العرش ورب الثالوث

اني محدثك بما يمليه العقل لا القلب عليَّ ، وبما هو من وضح التاريخ لا من النظريات ، فلا اقول غير ما يوجبهُ الاثنان ، وبينه البرهان . فاستمع لي ، دام حلمُك

ما تنتج بخير الارض في الزمان القديم غير الملوك والامراء ، والرؤساء المدنيين والدينيين ، وقليل غيرهم من المقربين . وما عُمِّر في الممالك عمارٌ يدوم طويلاً ويذكَر ، غير ما كان للرؤساء والامراء والملوك ، او ما كان مؤيداً لسلطانهم ، معززاً لنفوذهم ومصالحهم ، ما عُمِّر غير الطياكل والقصور ، والطرقات للقوافل والجنود ، والاقنية والترع في بعض الاماكن القري ، اول مصادر الثروة في العالم

وما كان المال يتوزّع توزُّعاً واسع النطاق ، فترقّ حواشيه في الاقل ويزداد خيرهُ ، بل كان يتجمّع فيتكتّل ، فيسوء لذلك مصير الامة والمُلْك . وقد كانت الكتلة الكبرى للملك طبعاً ، والكتل الاخرى للامراء من البيت المالك ، ثم للكهان والاشراف

اما الباقي من الامة ، اي السواد ، فقد كانوا على الاجمال محرومين حتى التملك ، مستعبَدين حقيقةً ان لم يكن اسماً كذلك . ومن كان منهم صاحب عقار ، كان ذلك العقار كوخاً في حي الفقراء ، او بيتاً حقيراً في ظل قصر من القصور

لقد اكثرت من البيان فوجب علي البرهان . مهما كان من تجريح التاريخ ، ومهما قيل في شطط المؤرخين ، فالحقيقة التي ذكرت ظاهرة لا ريب فيها . قلت ظاهرة ، وما كانت كذلك قبل ان شرع الآريون ينبشون مدنيات الماضي القديم ، فأظهروا تلك الحقيقة ، وأيدوها بالادلة المحسوسة

هي ذي في المعابد والقصور ، وفي قبور اصحاب القصور والمعابد . فقلما يعثر الآريون على شيء غيرها . هي ذي آثار الملوك والاشراف والكهان . واين آثار السواد من الناس ؟ انهم حتى في قبورهم باقدون ، وليس في حفريات الآريين ما يجدد لهم ذكراً ، غير ماعثر مثلاً من النحاس ، او قطعة من الفخار . وان سألت عن آثار البيوت بيوتهم والقبور ، دلوك على آثار القصور والمعابد

هذي هي مدنية الاقدمين ، مدنية الكهان والاعيان ، مدنية الاقلية الصالحة التي حملت الكرباج باحدى يديها ، والمبخرة بالاخرى ، فأشعلت في المعابد البخور ، وما ابقت للسواد من الناس غير القبور . بل حرمتهم حتى القبور التي تنجو من يد الدهر الهدّام ، فينبشها الآري في هذا الزمان

تلك القبور الملأى بالجواهر والتحف وبرموز الخرافات ان هي الاّ قبور من حلوا الكرباج و « أكلوا » الخراج . اما قبور من دفعوا الخراج و « أكلوا » الكرباج فَمَحَتْ عنها الزمان

وسَلْني انا عن عدد من لا قبور لهم ، وعدد اصحاب القبور الحافلة بالكنوز . سلني اذا شئت عن النسبة ، نسبة الاسياد الى العبيد في قديم الزمان . ولا تعجبنّ اذا قلت لك ان النسبة بين الفريقين لكنسبة الحبة الى القبة

***

واليك من التاريخ بالمثل والبرهان

عند ما اشتد دور الانحطاط الاخير في مصر، ذلك الدور الذي بدأ في الدولة العشرين (١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م .) كانت ثروة البلاد كلها بيد عدد من الناس لا يتجاوز اربعة بالمائة من عدد السكان. فلو فرض ان عدد السكان في عهد الفراعنة الرعمسيين كان خمسة ملايين ، فالذين ملكوا الارض ، واستمتعوا بخيرها ، لا يتجاوزون المائتي الف . هي الطبقة المالكة حقيقةً ومعنىً وقد كانت مؤلفةً من الملك والاشراف والكهان ، وقليل ممن دونهم من التجار والحكام ورؤساء الجيوش

على ان سيادة الكهان في دور الانحطاط تعاظمت بتعاظم ثروتهم . فقد كان الفراعنة يزيدون أوقاف الهياكل ليؤيد ارباحها سلطانهم . بل كانوا يقدمون الاموال للآلهة ، ويتفنون عليهم ، سبحانهم وتعالوا ، الاوقاف الطائلة من مصانع ومزارع ومدن ، ليظل الآلهة راضين عنهم ، مؤيدين لعروشهم . وقد بلغت تلك الاوقاف في عهد رعمسيس الرابع خمسة عشر جزءاً من المائة جزء من ثروة مصر والبلدان التابعة لها (١)

وفي بابل ، خلال دور انحطاطها ، كانت النسبة بين اهل المال واهل الفاقة اقل مما كانت في مصر ، اقل قليلاً ، اي ثلاثة بالمائة . فلو قلنا فرضاً ان سكان مملكة بابل ثلاثة ملايين كان المستحوذون على ثروة البلاد تسعين الف غني . وقد كانوا هم المالكين حقيقةً ومعنىً ، باسم الآلهة ، مثل اخوانهم في مصر

اما في بلاد فارس فقد كانت الحالة الاقتصادية اشد وانكر . في بلاد فارس ، حتى في عهد داريوس الكبير ، كان عدد القابضين على زمام الثروة في الامة اثنين بالمائة فقط ، اي نحو مائة الف بشر ثري. هذا اذا كان عدد السكان خمسة ملايين ، يوم كانت العجم تحارب الاغريق

وما كانت بلاد الاغريق ، على علو كعبها في التمدن ، تفضل بلاد فارس في توزع ثروتها . بل كانت تلك الثروة منحصرة كذلك في القليل القليل من الناس ، فسيتهم الى السواد نسبة مخجلة . هي مخجلة حقاً لانها من حقائق الحياة « الزانية » في بلد سقراط وبرقليس

---

(١) في ما يلي بعض الارقام من احصاء في السجل البردي المعروف بسجل (هاريس) ذكره الاستاذ برستد Breasted في كتابه تاريخ مصر صفحة ٤٩١ — فالآلهة او الهياكل ، او بالحري وكلاء الهياكل والآلهة ، اي الكهان ، كانوا يملكون في عهد رعمسيس الرابع :

١٠٧٠٠٠ رقيق (من كل خمسين نفساً من الاهالي نفس واحدة للهيكل)

٥٥٠٠٠ رأس من المواشي

٧٥٠٠٠ فدان من الارض (اي ١٥/١٠٠ من ارض مصر الصالحة للزرع)

٨٨ مركباً من مراكب النيل

١٦٥ مدينة في مصر وسورية (اي خراجها كله للهياكل)

أضف الى ذلك ما كان يقدم للآلهة من التحف والجواهر والمال ذهباً وفضة . فقد كان الدخل السنوي للاله امون وحده ٢٦٠٠٠ قطعة من الذهب ، ماعدا نصيبه مما تغنم ذكره

اجل ، ان عدد الاغنياء في دور انحطاط اثينة لمحتقر ومخجل . كيف لا ، وهو لم يبلغ الجزء الواحد بالمائة ؟ بل كان نحو نصف جزء الواحد . ومعنى ذلك ، ايها الفاضل ، انهُ لم يكن بين كل الف فقير غير خمسة من اصحاب الثروة ! فلو فرضنا ان عدد السكان يومئذٍ اربعة ملايين فعدد الذين احتكروا ثروة الامة الاغريقية يكون عشرين الف سيد اغريقي

اما العرب اجدادنا فقد كانوا في قديم الزمان ، وفي الجاهلية ، من الشعوب التي ما عرفت من المال — لا من خيره ولا من شره — شيئاً كثيراً بل كانوا ، الاَّ في اليمن ، وفي قريش من القبائل ، فقراء فقراء . . وقد كانت الثروات اليمانية ، واكثرها صغيرة ، منحصرة في الاذواء وذويهم ، والمقربين منهم

ثم بعد الفتح اخذت تتسرَّب اموال الامم الى بيت المال في المدينة ، فأحسن استخدامها الخليفتان الاول والثاني ، وأساء استخدامها الخليفة الثالث ، فما ابقى لخلفه غير القليل ، بذل معظمهُ في حربٍ خاسرة

وبعد ذلك أخذت الثروة تتضخم في عهد الامويين ، ثم في عهد العباسيين . ولكننا لا نعلم حق العلم مقدار تكتُّلها — الاَّ في بيت المال طبعاً — ومقدار النسبة بين عددي الاغنياء والفقراء في سورية والعراق . لقد عظمت ارقام الخراج ، ولا غرو ، فصارت تُعَدُّ بالوف الالوف . ولكنها كانت مطلقةً من قيود العدل ، الاَّ في ايدي الخلفاء العادلين ، وهم قليل . وكان الباقون يتصرفون في الخراج كيفما شاؤوا وشاءت اهواؤهم وملذاتهم

لا يجوز ، وانا في هذا الحقل القاحل من تاريخنا العربي ، ان امرّ ساكتاً بحالة اجتماعية جميلة خفَّرت حواشيه ، فأثمر فيها الاحسان ، وشرف الانسان . حدثنا عنها ابن بطوطة . وحسبي الآن ان اشير اليها ، وادلك عليه . هي الاوقاف المتعددة التي شاهدها في دمشق وعدد منها ما يدعو للفخر والاعجاب . على انهُ يُستدَلّ من ذلك ان المال يومئذٍ كان متكتلاً ، ولكن اصحابه كانوا من المحسنين ، فبذلوا ما استطاعوا ، في أوقافهم العديدة ، لتخفيف وطأة الفقر عن السواد من الناس

***

اذا استثنينا هذا المظهر من مظاهر الغناء عند العرب كان في وسعنا ان نقول ان الحالة الاقتصادية المنكرة كانت في مصر اخف وطأة منها في سائر الممالك القديمة . فما السبب في ذلك ؟ لم تكن مدنية المصريين ارق من مدنية الاغريق . ولكن وادي النيل اكثر خصباً من ارض اليونان . وخصب الارض وثروة الامة يتناسبان ، وقلما يفترقان . فوادي النيل ووادي الرافدين تشابها خصباً في قديم الزمان ، ونسبة الغناء الى الفقر فيهما كادت تكون واحدة

على ان الثروات تكتَّلت في تلك الممالك القديمة كلها ، وخصوصاً في ادوار انحطاطها . بل كان التكتُّل السبب الاول في انحطاطها ؛ فعُدَّ المتمولون بالمائة وبالالف ، وعُدَّ الفقراء بالملايين .

وقد كانت اكثر الامم تمدناً — مثل الاغريق — اكثر الامم بفقرائها ، واصغرهن — ليس بالغناء — اصغرهن بالاغنياء

لا ازيدك علماً بما كان من احوال الفريقين الاجتماعية والادبية . لا ازيدك علماً بترف الاغنياء وتلف الفقراء ، بالقصور والبساتين ، والكوانح المساكين ، بالمنكرات العلنية ، والامراض السرية . بالاباحات المحللة المضمخة بالبخور ، المكللة بالزهور ، وبالبؤر الاخلاقية التي يولدها الوحام والظلام . عُد الى التاريخ تزدد تيقناً مما اقول

واني فوق ما قدمت اعطيك البرهان الاكبر من تاريخ الدولة العالمية الكبرى ، دولة الرومان ، وقد دانت لها شعوب الارض شرقاً وغرباً ، وتسربت الى خزائنها بزومة اموال العالم فكانت رومة ، في ذلك الزمان ، كما هي لندن اليوم ، قطب السيادات السياسية والاقتصادية والمالية كلها

وماذا كانت نسبة العددين ، عدد الاغنياء وعدد الفقراء ، في تلك الامة الرومانية العظيمة ؟ لقد كانت في مصر اربعة بالمائة ، وفي بابل ثلاثة بالمائة ، وفي ايران اثنين بالمائة ، وفي بلاد الاغريق نصف واحد بالمائة ، فماذا كانت في رومة ؟

ما كان في رومة ، ايها النجيب ، نسبة تذكر بالدورة الحسابية البسيطة . لا ١٪ ولا ½٪ ولا ٠٫١٪ بالمائة ولا جزء واحد من الخمس . وذلك لان الشعوب التي كانت تدفع الضرائب للرومان كانت تربي على الخمسين مليون نفس (اذا كنت مخطئاً في هذا العدد فخطأي بالنقص لا بالزيادة) . ولأن الرومان الذين ملكوا الارض لم يتجاوزوا في دور انحطاط رومة الالفين عدداً

اثنان من خمسين مليوناً ! فما هي النسبة ؟ اعمل حسابك في مهل ، ودعني أؤكد الالفاظ المخجلة . اثنان من الرومان يستمتعون بثروة العالم في تلك الايام ، وملايين من الشعوب الاوربية والاسيوية فقراء فقراء ، لا يملكون — كما يقال — شروى نقير

بئس الدولة التي يدير شؤونها ، ويستمتع بجميع خيرها ، اثنان من سادة الناس
بئس الدولة التي تعظم فتتكتل الثروة فيها ، وتصغر فتستعبد الرجال

***

ان غناء اولئك الرومان لشبيه نسبةً بغناء اصحاب الملايين في اميركا . فقد بلغت ثروة احدهم ، حر إزيدوروس ، بحسب وصيته ، ٤٬١١٦ رقيقاً ، و ٣٬٦٠٠ رأس من البقر ، و ٢٧٥٬٠٠٠ رأس من مختلف المواشي ، ما عدا نصف مليون من المال ذهباً . وما كان إزيدوروس باقصى الرومان ، وما ثروته هذه الا ما تبقى عنده بعد خسارة جسيمة

اما ثروات عوامل الرومان فقد كان بعضها يدنو من الثروات الاميركية الكبرى . كثروة الامبراطور طيبيريوس مثلاً التي حسبت عند وفاته باثنين وعشرين مليون ليرة ذهباً

فأين منها ثروات ملوك هذا الزمان وحكامه ؟ لقد تقدمنا من هذا القبيل . فالملوك والسياسيون في زماننا قلما يثرون . انما الاثراء للتجار ، وارباب الصناعات والمهن

ومن هؤلاء ، في بلاد مثل انكلترا ، تتألف طبقة الاشراف . فصاحب معمل الصابون مثلاً ، او صاحب طاقة من الجرائد والمجلات ، وقد صار مليونيراً بفضل عصاميته ، يصير نبيلاً بفضل تقليد قديم لتخليد طبقة النبلاء . وكيف تخلّد هذه الطبقة وتظل رفيعة الشأن ، عزيزة الجانب ، اذا كانت الحياة لا تتجدد فيها على الدوام ؟ انها لحكمة بليغة في المحافظة والتجدد

وهذه الطبقة الشريفة تملك قسطاً وافراً من ارض انكلترا . كل نبيل قروي ، ولا يعكس

وفي انكلترا من اصحاب الملايين ٥٤٣ ثريًّا (احصاء سنة ١٩٢٩) اما اصحاب الثروات الصغيرة التي تتراوح بين العشرة آلاف والمائة الف جنيه ، فيبلغ عددهم ٤٠٦٥٠٠٠٠ اي نحو عدد سكان مصر في عهد الفراعنة الرعمسيين ونحو الثمن من عدد سكان بريطانية العظمى الآن

***

لا نكران اذن ان نسبة الفقراء الى الاغنياء قد تغيرت تغيراً حسناً يذكر . ولكنها لا تزال دون الاحسن المنشود . فالهدف الاعلى للشعوب المحرَّرة هو قائم ، على ما ارى ، بين بلشفية روسية المركسية واشتراكية اميركا الدمقراطية . فان في البلادين تجري اليوم تجربات خطيرة مختلفة هي كلها ، في عدلها الانساني المنشود ، اكبر قصداً ، وأبعد مرمى ، مما تقدمها من الاصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في التاريخ القديم والحديث

وهناك فرق آخر بين غنائنا وغناء الاقدمين . فان مجموع الثروة عندنا ، في امة واحدة من الامم الغنية ، لأكبر جدًّا مما كان حتى في الدولة الرومانية العظمى . بل ان رجلاً مثل روكفلر او روكفلر او هنري فورد لَيملك وحده ما يتذر بثمن ثروة رومة في ذلك الزمان

هذا وان التكتل المالي آخذ بالتفكك ، وقد اتسع ، خصوصاً بعد الحرب العظمى ، نطاق انتشاره وقلّ نطاق حيره ، فتعددت الثروات في الدول الكبيرة في الاقل ، وازداد عدد الميسورين . لقد اصلحت البيان عما في انكلترا من اصحاب الملايين وأصحاب الثروات الصغيرة . وان عدد هؤلاء في فرنسا لأزود ، الا أصحاب الملايين (بالفيرات) فلا اظنهم كثيرين . على ان طبقة البورجوازي التي تحكم اليوم البلاد سياسيًّا وماليًّا هي اهم الطبقات هناك ، ان لم تكن اكبرها وأغناها

***

ومما يدل على اليسر المتسع النطاق في هذا الزمان عدد السيارات . فان في فرنسا ١٦٧ر٢٩٤ر١ سيارة[1] اي واحدة لكل ثلاثين من السكان . وهي مثل ذلك في انكلترا ، وأقل من ذلك في المانيا

(١) احصاء سنة ١٩٣٠

اما في اميركا فقد بلغ عدد السيارات من جميع الانواع في سنة ١٩٣٠ ثلاثة وعشرين مليون ومائة وعشرين الف سيارة، اي سيارة واحدة لكل خمسة اشخاص

وعدد اصحاب الملايين غير الكبار ، اي الذين يملكون ما يتراوح بين الخمسة والعشرة ملايين من الدولارات ، يفوق عدد ما في انكلترا . فان في مدينة نيويورك وحدها مائتين منهم . وفي الولايات المتحدة سبع مدن كبرى ، بعضها اكبر من باريس ، وخمس عشرة مدينة كالقاهرة . وفي كل مدينة اغنياؤها ذوو الثروات التي هي فوق المليون ودون الخمسة ملايين دولار ، فضلاً عن اصحاب الثروات الصغيرة ، ويقدَّر عددهم بثلاثة او اربعة ملايين ، بناء على ضريبة الدخل التي بلغت في سنة ١٩٣٠ نحو بليونين واربعمائة مليون دولار ، وهي بالتدقيق :

من الشركات	١ر٢٦٣ر٤١٤ر٤٦٦
من الافراد	١ر١٤٦ر٨٤٤ر٧٦٤
	٢ر٤١٠ر٢٥٩ر٢٣٠ دولاراً

اي الفين واربعمائة الف الف على طريقة العرب في العدّ

لا نكران اذن ان عدد الاغنياء والميسورين آخذ بالازدياد في العالم . ولكن ذلك لا يعني ان شرور الفقر قد زالت ، او هي مسرعة في الزوال . ذلك لا يعني ان الجور والتعسف والاستئثار ، وفساد الاخلاق والجرائم والامراض ، الناشئة عن تكتُّل الثروات ، وعن الفقر المقابل لها ، قد أمست كلها في خبر كان . بل هناك ضروب من الجور ، في المعاملات المالية الكبرى وفي المشروعات الاقتصادية العظيمة ، لا تستطيع الحكومات ، لا الجمهورية منها ولا الملكية الدستورية ، ان تزيلها الاَّ اذا تغيرت نظمها اصلاً واساساً

ان الفرق اذن بيننا وبين الاقدمين في المسألتين ، موضوع هذا المقال ، اي في التكتُّل المالي وفي نسبة الفقراء الى الاغنياء ، هو ان المال عندنا قد ازداد ازدياداً عجيباً ، وقد تغيرت النسبة تغيُّراً حسناً ظاهراً . فمن ١٠٠/٤ في عهد الفراعنة ، الى ما يتراوح بين ١٥ و٢٠ بالمائة في زماننا ، في الامم التي ذكرت ، وهذا ما يصح ان يدعى ارتقاء . ولكننا لا نرضى بان نقف في الارتقاء عند هذا الحد

لا نقول ان عدد الاغنياء في العالم يجب ان يزداد ويستمر في الازدياد . كلاَّ . انما نقول يجب ان يقل عدد الفقراء في العالم ، ثم يقل ، فيزول الفقر تدريجاً ، وتزول شروره كلها

هي ذي الحالة الاقتصادية الاجتماعية التي ينشدها ذوو الفكر الراقي النزيه ، ذوو الفكر الدولي الانساني . هو ذا الهدف الاقصى ! وستدركه في المستقبل الامم المتمدنة جمعاء

الفريكه — لبنان